الحروف العربية
ودلالة أصواتها

بقلم: يوسف سامي اليوسف

في زعمي أن الكلمة العربية مبنية بناء كيميائياً يؤسسه مبدأ التفاعل القائم بين الجزيئات الصانعة لبنيتها الصوتية أو اللسانية. وهذا يعني أن تمازج أصواتها المتباينة من شأنه أن يحدد معناها، أو هو يدخر صورة ذهنية تجريدية تملك أن تسهم في دلالتها وفحواها، أو أن تصوغهما على نحو نهائي، فالحرف العربي من حيث هو صوت له دلالة مؤكدة تشع حضورها في فضاء اللفظة العربية المنسوجة وفقاً لمبدأ التلاحم والاندغام بين جميع أصواتها التي تتحد لتؤلف مجمل الدلالة. فإذا أخذت كلمة انجليزية أية كانت، ولتكن مثلاً كلمة **dog** التي تعني الكلب، فلن تجد أية صلة بين لفظ هذه الكلمة وبين الكائن الذي تؤشر إليه، كما أنك لن تجد أية صلة بين أي من أصواتها الثلاثة المتباينة وبين فحواها النهائي. فهي تؤشر إلى معناها بطريقة عشوائية أو اصطلاحية وحسب.

أما كلمة «الكلب» العربية فإنها على النقيض من ذلك تماماً، أعني أن في ميسور المرء أن يسبر مغزاها إذا أحسن قراءة ما تنطوي عليه حروفها من دلالات. فالحرف الأول يؤشر إلى الكون أو إلى الكائن، بينما يؤشر الحرف الثاني إلى الملازمة أو إلى الالتصاق، أما الباء فلها عدة دلالات أهمها الامتداد أو الانديا‌ح، وكذلك الظهور والتواري. ولهذا، فإنه موجود في نهاية كلمة «الدرب» التي تعني الدوران الطويل أو المديد. وهذا كله يؤلف صورة الكلب التجريدية التي تتلخص في أنه كائن ملازم لكائن آخر أو لكائنات أخرى وعلى نحو دائم.

ويصح هذا المذهب على لفظة «الكلام» أيضاً، فقد لاحظ ابن عربي أن الكلام هو القول المؤثر في النفس، والذي يشبه الكلوم، أو الجروح، في البدن. وبهذا الفهم فإنه يختلف عن القول الذي لا أثر له، وفقاً لرأي ذلك الشيخ. ولعل من شأن كلمة «الكل» أن تشرح المقصود منها بواسطة أصوات حروفها، فالكل كتلة موحدة الأجزاء، متماسكة أو متواصلة ومستمرة بحيث تشمل جميع أجزائها، حتى وإن كانت هنالك فجوات بين عناصرها المتباينة.

وهو يصدق كذلك على كلمة «الشجرة». فالشجرة لفظة مأخوذة أساساً من الشج الذي هو الانقسام أو الانشعاب أو التفرع، والشجرة كائن من العالم النباتي يتفرع إلى فروع أو إلى أغصان كثيرة، ولهذا، أطلق الرسول في حديث معروف اسم الشجرة على نبتة الثوم المتعددة الفروع. ولعل في السداد أن يقال بأن الشين هو حرف التشعب والانتشار. ولهذا، فإنه يقع في صدر كلمة «الشمس» التي ينتشر نورها في فضاء الكون كله. كما أنه يقع في صدر كلمة «الشعاع» الذي يملأ مكاناً من الأماكن الواسعة أو الضيقة.

ولكن ما تنبغي ملاحظته أن الحرف الواحد تتقوى دلالته بحرف آخر يأتي بعده فيعززه ويشكل وإياه كتلة دلالية تبث معناها في فضاء العقل.ففي كلمة «الكلب» وكلمة «الكلم» كان التحام الكاف باللام هو الذي رسخ الدلالة والمعنى، وفي كلمة «الشجرة» كان التحام الشين بالجيم هو المؤسس الأول لصورة الشيء الذي تؤشر إليه هذه الكلمة، أو لعله أن يصوغ نواة لصيغة تنوه بالأصل الصوري الذي جاءت منه، فالصورة الأولية التجريدية هي الأصل في

صياغة جميع الكلمات العربية دون استثناء، حتى وإن عجزنا عن أن نقرأ معظم الألفاظ العربية بمنهج فقهي سابر .

ثم إنك لو أخذت كلمة «الكتاب» العربية، مثلاً، ونقبت عن دلالتها في المعاجم لوجدتها تعني الجمع أو التجمع. وسميت الكتيبة (وهي أخت الكتاب) لأنها تجتمع أو تحتشد. وإذا ما تأملت الحرفين الأول والثاني في جذرها الثلاثي، وهما الكاف والتاء، لوجدت أن الكاف هو حرف الكون أو التكتل والاحتشاد أو الاجتماع، وأن التاء حرف الرقة واللطف، وهذا يعني أن «الكتاب» كلمة معناها الاجتماع اللطيف. وذلك هو حال الكتيبة التي كانت جنودها في الحياة البدائية القديمة تجتمع أو تحتشد طوعاً أو دون أي قسر. فإذا ما أردنا أن نبلغ إلى فحوى الكلمة، فإن علينا أن نقشر الأزمان عن نواتها الأولى، أو الجذرية، التي هي صورتها التجريدية المنجبة لها، فالأزمان تتراكم عليها وتشكل لها لحاء سميكاً يشبه الصدفة، ولا بد من كسر ذلك اللحاء كي نبلغ إلى اللؤلؤة المدخرة في المركز الحاشد للدلالة والفحوى.

وعلى أية حال، فإن مما هو شديد الأهمية أن التحام حرف بحر ف آخر هو ما يصنع الشراكة في الصورة التأسيسية لرتل بكامله من الكلمات المنسقة أو المتناسقة، وهو ما يمنح ذلك الرتل صباغاً أحادياً تقريباً، مع احتفاظ كل مفردة بصباغها الخاص الذي يمنحها التفرد والانفصال النسبي عن بقية مفردات الرتل. فالفرد والفرق أخوان، أعني أنه لن يكون هنالك فرد إلا إذا كان هنالك فرق، ولكن الفرد مهما يختلف عن سواه من البشر ويباينهم فإنه يشبههم كثيراً أو قليلاً، وهذه هي حال الكلمة في رتلها الذي تشترك معه في صورة شاملة.

فلو أخذت مثلاَ ذلك الرتل المؤلف من الحاء والراء بالإضافة إلى أي حرف ثالث من الأبجدية العربية لوجدت، في الغالب الأعم، صورة الحرارة والحركة هي النواة التي تفقس معنى الرتل كله، ولتكن البداية كلمة «الحرب» بجزم الراء و«الحرب» بفتحها. فالأولى هي القتال والثانية هي السلب والنهب. وليسأل المرء نفسه هذا السؤال: هل هنالك حرارة وحركة أقوى مما في هذين العملين؟ ولنتابع الرتل إلى نهايته: حرث، حرج، حرح، حرد، حرر، حرز، حرص، حرض، حرف، حرق، حرك، حرم، حرن. ناصع، إذن، أن الحاء هو حرف الحياة والحيوية والحرارة والحركة والحرية والحرب والحب والحلم والحنين والحميم والحس والحت والحث والحج والإلحاح والحض، وسوى ذلك مما هو في الصميم من الوجود البشري بأسره. وقد لا يخفى أن الحاء في كلمات «الحب» و«الحلم» و«الحنين» و«الحميم» هي المؤشر الأول والأكبر إلى ما تنطوي عليه هذه الكلمات من فحوى أو دلالة. وربما كان واضحاً تماماً أن كلمة «الروح» تتضمن الإشارة إلى الحرارة نفسها، مع أن حرف الحاء قد جاء في نهاية الكلمة بدلاً من صدرها، ولقد جاء حرف الواو المنقلب عن ألف في عين هذه الكلمة أو في وسطها، والواو هو الحامل الأكبر لمعنى الوجد والوجدان، والوجود. ومما هو جلي أن الروح مشتقة من الريح، ولكن النفس مشتقة من النفس أو من التنفس، كما أن الأصوات التي تبني هذه الكلمة هي تقليد لصوت التنفس الذي تمارسه الرئتان، ولاسيما أثناء النوم.

ولعل في الميسور القول بأن الوجد هو الوجود الجاد، وكذلك هو حال الوجدان، وأما الوجود نفسه فهو الكينونة بوصفها جوداً أو سخاء يتدفق من ينابيع الخير. أما الوهم فهو الوجود الزائف أو المغلف بالظلام، والذي غادرته الحقيقة وغارت تحت التمويه، وذلك لأن الهاء حرف من حروف التواري أو الغياب الذي ينطوي على تمويه. فالهاء ينبثق من جوف الحنجرة، أو من عمقها، وهذا بالضبط ما جعلها تحمل محمول التواري المتطرف. ولهذا، فإنها تقع في أول كل

ضمير من ضمائر الغائب الخمس، بينما يقع النون، الذي هو حرف ظهور وحضور، في جميع ضمائر المتكلم والمخاطب. ويلوح لي أن الواو حين تجيء في أوائل الكلمات تكون مقحمة على بنية كل منها، أعني أنها ليست أصلية فيها، بل جاء بها التطور في مرحلة عالية من المراحل البدائية. والدليل على ذلك أنها تحذف أحياناً حين نشتق منها فعل الأمر، مثل: هب (من الوهب) وجد (من الوجود).

ولكن الأمر سوف يختلف إذا قلت «الكون» فالكاف للكائن والواو للوجود، أما النون فهو حرف الظهور، وهذا يعني أن الكون هو الكتلة المرئية أو الجسم الظاهر، وكلمة «اللون» شيء شبيه بهذا. فاللام للملازمة، أي هو صفة ثابتة لا تحول ولا تزول، والواو للوجود والنون للظهور، فاللون هو الموجود الملازم الظاهر. وأما «البون» أو المسافة والامتداد، فهو الانديا ح الظاهر الموجود.

ولقد رسمت النون على هيئة نصف دائرة لتشير إلى الكون الظاهر الذي هو نصف الكون فقط، ثم لتنوه بالكون الباطن أو المستور الذي هو من أجل البصيرة وحدها. ولقد وضعت النقطة في منتصف النون لتكون بمثابة المركز الذي تتمركز حوله الدائرة كلها، أو النصف المرئي والنصف اللامرئي في آن معاً. ويبدو أن النون حرف مثنوي من شأنه أن يؤشر إلى الظهور أحياناً وإلى التواري أحياناً أخرى. ومما هو ناصع تماماً أنه يؤشر إلى التواري في هذه الكلمات: الجن. الكن. الدن الذي هو إناء يواري الخمر. ومن هذا التواري جاءت كلمة «الجندي». فالجندي هو من تغطية الدروع أو تجنه وتحميه وتواريه.

ومما هو جدير بالتنويه أن هذه الحروف العربية، وهي نبطية الأصل، قد رسمت في مناخ الثقافة السريانية الشديدة الاهتمام بالأسرار والمستورات.

ولكن النون يظل حرفاً يفيد الظهور إذا ما جاء في أول الكلمة. وخذ مثلاً هذا الرتل الذي يتألف صدره من النون والباء: فالنبأ هو الظهور والانتشار العلني. والنبت هو الظهور والانتشار اللذين يعيشهما شيء لطيف، والنبث هو الحفر واستخراج المخبوء أو اللامنظور، والنبح ظهور شيء عن كائن حي وانتشاره. والنبس الظهور والانتشار ولكن بسلاسة، وذلك لأن السين هو حرف السلاسة. والنبض ظهور وانتشار ولكن على هيئة ضربات. ونبط تعني نبع. والنبع هو الظهور والامتداد من قبل شيء أعطي لمقلة العين. ونبغ الشيء ظهر وانتشر وجاء من الغياب، فكأنما النابغة هو المطل على الغيب، والنبل هو الظهور الممتد الملازم، ونبه ظهر وامتد وجاء من غياب عميق، فهكذا جاء في الصحاح «ويقال النبه: الضالة توجد عن غفلة لا عن طلب» وهذا يعني أنها تظهر فجأة من جوف التواري.

كما أن الخاء والباء تنطويان على صورة الغياب، ولكنه غياب فيه مكر أو خبث. وإذا ما أضفت إليهما أي حرف ثالث فإنك سوف تحصل على صورة من هذا القبيل. ولكن لا بد من التنبيه على أن الشيء الواحد قد يكون من الأضداد، أي يحمل الوجهين المتناقضين. فلا ريب في أن «خبأ» و«خبث» و«خبل» هي جذور تنتسب إلى صورة التواري، ولكن «خبر» تنتسب إلى صورة الظهور، فالخبر هو مجيء المجهول أو انتشاره، والخبر ة هي حيازة الحقيقة أو معرفتها والدراية بها. ويجب الاشتباه بهذه الأضداد في كل موضع.

ولئن كانت الحاء والراء تعني الحرارة والحركة، فإن الشين والراء تعني التناثر والانتشار. ولا زالت كلمة «الشرر» أو «الشرارة» تختزن الصورة التأسيسية لكل ما يمكن للغة أن تشتقه من مركب هذين الحرفين. فالشر المناقض للخير هو شيء يتطاير مثل الشرر تماماً، أي ينطلق

من شيء ما ثم يمتد وينتشر إلى أن يشمل رقعة واسعة المساحة ولهذا قيل: «الشر يستطير»، كما قيل «الشر من شرارة».

ولكنك إذا ما أخذت الثاء والراء متصلين فسوف تجد الأمر يختلف اختلافاً تاماً. فهما تؤشران إلى الكثرة على نحو جلي. وهذا هو معنى كلمة «ثر» العربية. وكذلك كلمة "الثرى" التي هي كثرة من ذرات التراب ثم «الثريا»، وهي تصغير الثرى، كما أنها كثرة من النجوم. والثروة والثراء لفظتان تدلان على كثرة المال.

وإذا كانت الحاء حرف الحياة التي هي الحضور في الوجود، فإن الغين هو حرف الغياب أو الحجاب والتواري عن البصر. فمن الواضح أن الغيب والغرب والغش والغبن والغبش والغراب والغفران والغت والغط والغشم (الذي هو الظلم المشتق من الظلام) والغسق والغشاء الذي هو الغطاء الحاجب للشيء والمغزى الذي هو المقصود المخبوء أو المستتر ـ من الواضح أن هذه المعاني تنطوي على غياب أو استتار.

يقول الصحاح: «الغلل: الماء القليل الذي ليس له جرية، وإنما يظهر على وجه الأرض ظهورا قليلا، فيخفى مرة ويظهر أخرى». وهذا يعني أن مفهوم التواري صريح في هذه الكلمة التي تبدأ بحرف الغين. وربما جاز القول بأنها من الأضداد، أي بأنها تنطوي على النقيضين كليهما. كما جاء في مادة «غلل» نفسها قوله: «وأغل الرجل: خان». والخيانة فعل يتم في الخفاء. ولعل مثنوية النور والظلام، أو الليل والنهار، أن تكون وراء صور الظهور والتواري التي تؤسس شطرا كبيرا من المعجم العربي. وليس بالصدفة أن تبدأ كلمة «النور» بحرف النون، فهو حرف الظهور بامتياز.

وينطوي مركب الجيم والميم على صورة الجمع والتماسك بين أجزاء كيان واحد. فإذا تأملت كلمة «جمد» لوجدت فيها صورة الجمع ناصعة لا تخفى. فالتجمد هو التجمع والتكتل. لقد التحمت ذرات المادة المتجمدة أو تجمعت على نحو متراص. وهذا يعني أن الصورة الأصلية ما انفكت رابضة في نواة هذه الكلمة. والجم هو الكثير، ولكن الجمل هو الكثير المتلاحم الأجزاء. ومن لفظة «جمل» اشتقت العربية المجمل الذي هو الكل، واشتقت الجملة التي تنطوي على صورة التجانس والتماسك والتعدد.

بيد أن الأمر يختلف كثيرا إذا أخذت الجيم والدال معا، وذلك لان هذا الحرف الأخير كثيرا ما يوحي بصورة الدور أو الدوران. فالجد هو من تجدد بحفيدة، أما الحفيد فهو الحياة وقد استأنفت دورانها، أي ابتدأت من جديد وعادت إليها حيويتها بعدما شاخ الجد.

ولئن أخذت كلمة «الجمر» وجدت أنها لا تؤشر إلى الكثير للوهلة الأولى. ولكنك إذا ما طالعت هذه المادة في المعجم وجدت هنالك ما يقنعك بان الصورة البدئية نفسها ما زالت منبثة في هذا الجذر، أعني «جمر». يقول الصحاح: «والجمرة ألف فارس». وهذا كثير جدا في العالم البدائي الذي أسس اللغة العربية قبل آلاف السنين. ثم يضيف في الموضع إياه: «وكل قبيل انضموا فصاروا يدا واحدة، ولم يحالفوا غيرهم، فهم جمرة.» وهكذا اتضح تماما أن هذا الجذر يختزن صورة الكثرة والتراص في داخله على نحو جلي تماما.

ولئن لم تجد الكلمة متسقة مع رتلها اتساقا مباشرا، كما هو حال كلمة «الجمر» هذه، فما عليك إلا أن تقشر عنها الأزمان لتصل إلى التصور الأصلي الذي يصبغها بصباغ شقيقاتها كافة. فمما هو ناصع أن المعنى الأقدم لكلمة «الجمر» هو الجمع، ولكن جذوة النار قد صارت تسمى

جمرة في زمن لاحق. فإذا كسرت هذه الصدفة التي كسيت بها الكلمة في طور أعلى وصلت إلى المفهوم البدئي لهذه الكلمة.

وحبذا هذا المثال أيضا. تعني كلمة «الغضارة»: المشتقة من «غضر» طيب العيش وخصوبته ورغده. ولكنك اذاما فتشت في هذه المادة نفسها من خلال المعاجم، فإنك سوف تجد هذا القول: «ويقال غضره، أي حبسه ومنعه». وما من ريب في أن الحبس صنف من أصناف القطع والغياب. وحبذا «غضف» مثالا آخر. فالغضف استرخاء الأذن. وهذا معنى طرأ على هذه الكلمة في زمن لاحق. أما أصلها فهو كما جاء في الصحاح: «اغضف الليل، أي أظلم واسود». وهذه هي الصورة البدئية لكلمة «غضف». وإذا ما تحرى المرء الأمر كله لوجد أن المقطع المؤلف من الغين والضاد يظل منطويا على صورة الغياب والانقطاع إذا ما أضيف إليه أي حرف ثالث من أحرف المعجم العربي. وبإيجاز، إن الغين المعجمة صوت من شأنه أن يؤشر إلى الغياب أينما وقعت، ولا سيما إذا جاءت في أول الجذر. ولكن علينا أن ننتبه للنقيض ولكون الحرف من الأضداد.

وربما جاز الزعم كذلك بان المعجم العربي كله يقبل الارتداد إلى حفنة من الصور، وأهمها الظهور والتواري (أو الظاهر والباطن)، والوفرة والندرة، أو الخصوبة والمحل، أو الكثرة والقلة. والكبر والصغر، والقرب والبعد، والوصل والقطع، وسوى ذلك مما يحتاج إلى تنقيب واستبار.

وفي تخميني أن علم الحرف قديم في بلادنا، أو حصرا في بلاد الشام والعراق. وأظن انه يتحدر إلينا من الطور السرياني لمدينة بابل العظيمة. وربما جاز الزعم بان ذلك الطور قد بدأ في القرن الثالث قبل الميلاد، أو إثر الموجة اليونانية التي اجتاحت منطقتنا الشائخة يومئذ. وعندي أن الصوفية البابلية هي التي بادرت وأنشأت هذا العلم "الذي يشقى به من عنده ولا يسعد"، كما قال ابن عربي، وهو الخبير الأكبر بهذا العلم في جانبه الصوفي. ويقابله ابن فارس وابن جني في جانبه الذهني أو الفقهي.

لقد تنبه ذلك الشيخ للحروف العربية، ولكنه الصق بها محمولات صوفية جد غامضة. بيد أن نظرته إلى حروف العلة الثلاثة قد تكون صائبة بالفعل. فقد رأى الألف بوصفه حرفا يرمز إلى الله، وكذلك إلى الواحد في الأعداد، وهو ما يرمز إلى الله أيضا. وجعله في الوقت نفسه رمزا لقوة الإنجاب الذكرية (بينما جاءت الباء رمزا لقوة الإنجاب الأنثوية، وهي ترسم على هيئتها). ولهذه الأسباب الثلاثة رسم الألف منتصبا أو متجها صوب الله سبحانه وتعالى.

أما الواو فهو حرف الوجود السماوي أو الروحي في نظره. ولكن الياء (بنقطتين) رمز الوجود الدنيوي أو الأرضي. ولهذا، فقد اختلفت الروح عن الريح التي اشتقت منها. فالواو في الأولى إشارة إلى اللامادي الذي هو تجريد محض، والياء في الثانية إيماء إلى المادي الذي هو تجسيد أو شيء أعطي للحواس، ولا سيما للبصر واللمس.

لا أحسبني البتة قد حسمت شيئا ذا بال، بل لا أظنني أتيت إلا بما هو جد قريب. (بينما لا يتيسر للعبقرية إلا أن تكون طويلة الشوط أو قادرة على الذهاب إلى البعيد والإتيان بالفحوى من النائيات). وهذا يعني أن فقه اللغة العربية ما انفك يتحدى الذهن الاستباري الباحث عن المستورات، إن كان هنالك في العالم العربي الراهن من يستطيع أن يتحمل المشاق.

ففي مخيلتي أن ثمة مشهدا منسجما تمام الانسجام داخل المعجم العربي من شانه أن يجعله شبكة متواصلة منداحة شاسعة الرقعة أو المساحة، بل لعله أن يشبه الهندسة الاقليدية في

انسجامه واتساقه وتناغم أجزائه. ولكنه محجوب عن البصر، ويتعذر أن يرى إلا بالبصيرة المتألقة وحدها. بيد أن البلوغ إليه قد يكون أعسر من البلوغ إلى المريخ. وربما كان هذا العسر هو ما جعل الشيخ الأكبر يرى في علم الحرف شقاء لا سعادة معه بتاتا. ولكن من رأى ذلك المشهد سوف يلتذ به أيما التذاذ، وأظنه سوف يكون مثل اكتايون الذي أبصر ربة الصيد عارية في كهفها، وفقا لحكاية سردها أوفيد، إلا انه دفع حياته ثمناً لذلك المنظر البديع.